

السلطة :

بين الأبوي والأمومي

نحلة حمادة

تنادي النزعات المثالية بالحرية، ومن ضمنها مؤخراً حرية المرأة وحتى حرية الطفل: وفي الوقت نفسه نجد أن المجتمعات التي توفر الحرية لجميع أبنائها هي طوباويات لم ولا نراها، ولا نفتأ نحلم بها، فلطالما قامت المجتمعات على عبد وسيد، امرأة ورجل (ولا أعني هنا التفاوت البيولوجي، بل التفاوت في الأدوار والتبعية)، أسود وأبيض، غير منتم إلى الحزب الحاكم ومنتم إلى الحزب، بحيث يكون العمل، وخاصة الجسدي المضني والرتيب والمتطلب للوقت كله من نصيب الفئة الأولى، وتكون القيمة المعنوية، والراحة الجسدية والانصراف إلى التفكير والتنظير والتوجيه، أو فقط الحياة المرفهة الفارغة، من نصيب الفئة الثانية، وهكذا تتوفر السلطة والحرية لفئة وتحرم منها الفئة الأخرى.

يقول التحليل النفسي بأن للحياة وجهين، يمكن تصنيفهما بشكل رمزي يستند إلى بعض الواقع في: (1) وجه الأم و(2) وجه الأب.

الوجه الأول يقوم على الإيثار والعاطفة وعلى رؤية الواقع كما يريده الفرد أو كما يريده من هم أثيرون لديه، لا كما هو، وعلى السعي وراء اللذة وإلى تحقيق الرغبات.

والوجه الثاني هو وجه الواجب والمسؤولية والنظرة الواقعية إلى الأمور وإلى قبول الواقع ومحاولة الانخراط فيه أكثر فأكثر، حتى يصبح الإنسان جزءاً من ذلك الواقع، أو يدخل إلى قلب الواقع ويصبح من صانعيه، أي من الأسياد والآباء والأزواج والمنتمين إلى الحزب الحاكم، فإذا حدث أن كان الإنسان امرأة أو أسود مثلاً، فإنه يقلع في كثير من المجتمعات عن التوغل في محاولة التأثير في الواقع، مكتفياً بالوصول إلى قبول الدور المرسوم له، ضمن الحدود التي يضعها الأسياد.

والمجتمعات لا تقوم بفعل الصدفة أو القوة فقط، بل غالباً ما تكون لها أسس نظرية وفلسفية تعلل واقع الحال، أو تزكي وضعاً تصبو إليه، وكثيراً ما يكافح المنظرون وأتباعهم حتى يجعلوا مما يصبون إليه واقعاً ملموساً، وقد يتأثر المنظر بوضعه الشخصي فيحاول أن يعزز أو يبرر الأوضاع التي تناسبه، فالأبيض يحاول أن يفلسف الأمور (وأحياناً يزور النتائج المختبرية) بحيث يبدو الانسان الأبيض متفوقاً في طبيعته على الانسان الأسود، والرجل يضع النظريات التي تعزز سلطة الرجال على غيرهم من البشر.

يتميز عصرنا هذا بكون صنع النظريات الحديثة في حدود السلطة ومبرراتها، ومبررات الحرية وحدودها، لم يعد وقفاً على المتسلطين الأحرار وأتباعهم كما كان الحال الغالب من قبل، بل خرجت إلى الساحة وجهات نظر للمتسلط عليهم والمقموعين تتفاوت في التطرف في المطالبة بتحديد السلطة وإطلاق العنان للحرية الفردية، ولو حاولنا تصنيف النظريات التي تتناول السلطة تبعاً لموقع المنظر منها (أي من السلطة) لوجدناها تقسم عدة مواقع، فهناك نجد:

(أ) المتسلطين أو المتأهين بهم المؤمنون بحق شبه إلهي للسلطة الفعلية كما هي، مثل هيغل (Hegel).

(ب) المتسلط عليهم الذين يأملون بأن يصبحوا يوماً من المتسلطين، وهؤلاء عادة لا يسعون إلى إطلاق الحرية، بل على العكس، وجلّ ما يطلبونه هو انتقال السلطة من موقع إلى آخر، مثال على ذلك بعض رجال الدين الذين يحاولون نقل السلطة من يد الدولة إلى أيديهم، وقد انتقدهم نيتشه على صنعهم من ضعفهم قوة تقهر الأقوياء بفضل الخلقيات التي تدعو الجميع إلى المسكنة والاستسلام فلا يبقى في الساحة غيرهم^(*).

(ج) المتسلط عليهم الذين لا يأملون بتحقيق الحرية لهم ولا لآخرين، حتى يتغير وجه الواقع بشكل جذري، هذه الفئة يمثلها ماركس (Marx) وماركوز (Marcuse) ودعاة مساواة المرأة بالرجل وغيرهم.

(د) اليائسين من امكانية تحقيق المجتمع المتحرر الذي يتوق إليه الفرد، لاعتقادهم أن الفرد ومشاعره لا بد وأن يبقيا أغراباً في المجتمع حيث تسود سلطة غاياتها غير غايات الفرد. ودعاة نظرية الاغتراب، هؤلاء يسعون من خلال تصوير شقاء الفرد في مجتمع غريب عن رغباته وسعادته، إلى تغيير الأوضاع جزئياً بحيث تخف وطأة الاغتراب، بالرغم من انهم يائسون من محو نهائياً، فهو، في نظرهم، من طبيعة الحياة الاجتماعية. هؤلاء كثرة في الفكر الأوروبي المعاصر، ويمكن أن يمثلهم سارتر (Sartre) وفرويد (Freud) وغيرهما.

فما يلي نحاول أن نعرض بإيجاز متناه أمثلة عن تلك النظريات، لافتين القارئ إلى ملاحظة ما حصل تدريجياً في تاريخ النظريات السلطوية الحديثة من انتقال من التركيز على السلطة الأبوية المطلقة، إلى نظريات تدعو إلى

(*) لن أورد مثلاً على هؤلاء في مقال، لأنه من الصعب أن نسمي نظرياتهم فكراً، فهي نوع من التسييس للأوضاع الدينية القائمة، لا تستعمل الفكر بل تقمعه حتى تستغل الايمان لاحتكار السلطة.

سلطة أبوية - أمومية، وأخرى تتطرف مطالبة بسلطة أمومية صرفة. أو بعبارة أخرى، كيف انتقل المفكرون من جعل قيادة المجتمع في يد العقل والمصالح العملية، إلى الأخذ بعين الاعتبار شعور الفرد وسعادته، وأحياناً إهمال العقل والمصالح العملية مداراة لمشاعر الفرد وتحقيقاً لسعادته.

نظريات تركز على سلطة العقل أي السلطة الأبوية: هيغل وماركس

في القرن الماضي كانت النظرة الفلسفية السائدة تقول بأن الإنسان هو بالدرجة الأولى عقلائي، من هنا رأى كل من هيغل ومعارضه ماركس، أن حرية الفرد يمكن أن تكون هي ذاتها مصلحة المجتمع، فيما لو وجد الفرد في مجتمع يحكمه العقل، من جهة، وفيما لو تحكم الفرد بمشاعره وترك قياد ارادته للعقل دون سواه، من جهة أخرى.

فالإنسان القادر على الخيار الحر، في نظر هيغل، هو إنسان تتوفر له شروط تحدّد وضعه المادي والنفسي كما يلي:

(أ) - يجب أن يتحقق للفرد شيء عن الملكية الخاصة تكون بمثابة المسافة التي يتحرك ضمنها محققاً حريته، وهذه المسافة لا تكون إلا بفصل ملكية الفرد عن ملكية الآخرين.

(ب) - يجب أن يصل الفرد لمرحلة من الوعي تخوّله أن يعي حريته ومؤهلته الطبيعية، مما يمكنه من تحديد أهدافه حتى يستخدم حريته في تحقيق تلك الأهداف.

(ج) - يجب أن يكون الفرد عاقلاً بحيث يتخذ موقفاً أخلاقياً مناسباً من جميع جوانبه، مما يتناسب مع مصلحته والمصلحة العامة في آن واحد، بفضل تحكمه لما يسميه هيغل، العقل العام. أما السلطة، فهي في نظر هيغل المجسّد المادي، للعقل العام، وهي منطقية وعادلة إذ إنها تعي أن الأفراد لا يسلّمون قيادهم بحرية إلا لسلطة أو دولة تسعى لتحقيق خير المجموعة ومصلحتها. وهذا الوصف ينطبق، في اعتقاده، على كل مجتمع حضاري، فالسلطة هي دائماً سلطة عاقلة، وعليه يجب على الفرد أن يقبل في جميع الأوضاع بسلطة دولته وأن يتعاون معها بل ويتهامس بها من خلال العقل العام، ويرفض هيغل الخوض في موضوع المجتمعات التي لا تقوم على أسس كهذه، مبرراً رفضه باعتقاده أنه بما أن الإنسان عقلائي، وبما أن المجتمع هو جماعة من هؤلاء العقلانيين، فلا يمكن أن يقوم مجتمع أو سلطة لا يتحلان بالصفات التي ذكرنا. بقي أن نقول أن الفرد في نظر هيغل هو الرجل أو رب العائلة، إذ إن مشاعر المرأة، في نظره، تحكم بعقلها مما يعرقل حريتها حسب تعريفه هو للحرية، وهذا ينطبق على الأطفال، وعلى بعض الرجال أيضاً، والعائلة هي، عند هيغل، الخلية التي يتكون منها المجتمع وبالتالي كتيبة وجهها « المجتمع يصنع الإنسان »، وأن « الإنسان يصنع التاريخ »، وتمكن الاضافة هنا أن هنا أن الإنسان يصنع التاريخ بنية طيبة وعاقلة، فهو إذا تأمنت حاجاته المادية، يقلع عن العنف وعن المنافسة.

أما ماركس، فقد شدد على أن الفرد الحر هو في الوقت ذاته ربيب مجتمع وبيئة يملكان عليه ما تختاره ارادته، وإن ارادته هي بطبيعتها خيرة بحيث انها تختار فعلاً الخيار الذي هو لمصلحة المجتمع، فالعلاقة بين الفرد والمجتمع دياكتيكية وجهها ان « المجتمع يصنع الانسان »، وان الانسان يصنع التاريخ، ويمكن الاضافة هنا ان الانسان يصنع التاريخ بنية طيبة وعاقلة، فهو إذا تأمنت حاجاته المادية، يقلع عن العنف وعن المنافسة.

يبدو موقف ماركس لأول وهلة شبيهاً بموقف هيغل، أما ما يميز ماركس عن هيغل فهو الاعتقاد بأن الختمية الاقتصادية إلى جانب عقلانية الانسان ستؤديان حتماً إلى المجتمع اللاتبقي، وإلى أن يتم الوصول إلى هذه الختمية المنشودة، على الأفراد أن يستعملوا حريتهم في الصراع الايديولوجي حتى يسرعوا في بلوغ الهدف، إذا وجدوا تحت سلطة أهدافها تتعارض مع ديكتاتورية البروليتاريا ومن ثم مع المجتمع اللاتبقي، وعليهم أن يلجموا حرياتهم إذا وجدوا تحت سلطة لها تلك الأهداف حتى ولو تعرضت هذه السلطة لحرياتهم في الممارسة اليومية، ينبغي قمع العمل الفني إن هو أساء من قريب أو بعيد إلى أهداف السلطة الاشتراكية.

وهكذا نرى أن ماركس الذي يجعل من خدمة سعادة الانسان الغاية الوحيدة للفكر والفلسفة، يكرس في نظرياته سلطة العقل على ما عداه وكأنه بذلك يقول: حقاً أن سعادة الانسان هي الأهم، إلا ان العقل المتمثل بالسلطة الاشتراكية وحده يعرف كيف يحقق القسط الأوفر من السعادة للجميع، ومن يقل غير ذلك فهو لا يعرف مصلحته، ولا يعرف ما ينبغي عليه أن يختار لكي يصبح سعيداً، أو كأنه يقول: « في ظل السلطة الأبوية العاقلة يتحقق ما تسعى إليه السلطة الأمومية ». وقد رأينا ان الواقع غير ذلك إذا كانت الحرية من مستزلمات السعادة، إذ كيف يمكن للمرء أن يكون حراً ومحكوماً في الوقت نفسه.

نظريات تتفاوت في درجة المطالبة بسلطة أمومية

هذا الوضع الذي يطلب من الفرد أن يستخدم حريته في مجال (بعد أن يحدد له ماركس هدف تلك الحرية!) وأن ينصاع لسلطة الدولة في مجال آخر، هو وضع غير متناقض في نظر ماركس، فممارسة الحرية، في نظره تكون على نطاقين:

(1) - الخيار المصري المتكامل الذي يضع الخطوط العريضة للنهج الذي يرتأيه الفرد لحياته وللحياة بشكل عام، ويكون اختياراته اليومية الجزئية بهدية.

(2) - الخيارات الجزئية التي تواجه الفرد، والتي يبت هو بها على ضوء الخيار المصري. فالانسان لكونه مخلوقاً عقلانياً يمجّ المواقف المتناقضة، لهذا تخضع خياراته الجزئية لوحدة منسجمة فكرياً. لذلك، فمن ينصاع في خياراته الجزئية إلى إرادة خارجية تهدف إلى ما يهدف هو اليه، لا يكون قد تخلى عن حريته، بل يكون قد عزّزها، إذ إنه بذلك يقدم المزيد من الخدمة لتحقيق هدفه الأكبر والأهم. والمثل عن التناقض الذي ذكرنا: ان

ماركس لا يجد حرجاً في الاعتراف بأن الحرية غير المقيدة ضرورة في مجال الخلق الفني، في الوقت الذي يصرح بأنه في القرن العشرين أقل نجم المطلق في الفلسفة، وأقلّت معه سلطة العقل المطلق، فنشأت النظريات التي تركز على الوجودي المتحرك (Existencial) بدل المطلق الثابت (Universal) - كما نرى عند الوجوديين أمثال جان بول سارتر -، أو على الشعور كقيمة إلى جانب العقل - كما نرى عند سيغموند فرويد -، وأحياناً على الشعور كقيمة وحيدة - كما يبدو الحال في نظر هربرت ماركوز.

سارتر (Sartre):

تغيرت نظرة سارتر للسلطة في أعماله الأخيرة التي تأثر فيها بالماركسية والظاهراتية (Phenomenology)، كما يتجلى في نقد الفكر الديالكتيكي، عما كانت عليه في أعماله الأولى وخاصة في الوجود والعدم. إلا أن سارتر يظهر منتهى عدم الثقة بالسلطة في كلا المرحلتين، ففي المرحلة الأولى يطالب بالسلطة الأمومية الصرفة التي هي غياب للسلطة^(*)، وفي المرحلة الثانية يعود فيقر - منشعباً بماركس - بمجدوى هيمنة السلطة. إلا أن تلك السلطة التي لها الصيغة الأبوية، عند سارتر، هي غيرها عند ماركس، فماركس يثق بالسلطة وسارتر لا يثق بها، فالسلطة التي تبدو كسلطة الأب عند ماركس، تبدو كسلطة «زوج الأم» عند سارتر، فنظرة سارتر للسلطة الأبوية في نقد الفكر الديالكتيكي لا تقل تشاؤماً عن نظريته إليها في الوجود والعدم، وإن قرر في المرحلة الثانية أنه لا بد من الخضوع للسلطة، فهو يظهر منتهى عدم الثقة بها في المرحلتين على حد سواء.

ففي الوجود والعدم يبين سارتر أن الواقع المادي يحمل المرء على الشعور بالاغتراب «وبهمّ وجودي» (anguish) يقودانه إلى اليأس. فالإنسان هو وعي، وقيمه الوحيدة هي حريته المطلقة، والوعي والحرية الرفضان للحدود يصطدمان بحدود الواقع المادي الذي يناسب الحرية العداء. والسلطة هي الجزء من العالم المادي الأكثر قمعاً للإنسان بما هو وعي وقيمة خلقية تزداد أو تنقص بازدياد أو نقصان تطبيق الحرية في حياته. إذاً فعلى المرء أن يقاوم السلطة ويكسر قواها تحقيقاً لحيته وقيمه.

أما في نقد الفكر الديالكتيكي، وهو الأكثر نضجاً من الناحية السياسية، فسارتر لا يثق بالمتسلط إلا إذا كان متسلطاً عليه في الوقت نفسه، تفسير ذلك أن سارتر يعتقد أن النظم القائمة على الانتخاب والتمثيل هي نظم باطلة، فعندما تنتخب جماعة ما شخصاً ليمثلها لدى مجلس تمثيلي، يفقد المنتخب قدرته على التمثيل بمجرد أن يصبح عضواً من أعضاء المجلس، إذ إن انتخابه يجعله عضواً في وحدة (Totality) أخرى غير الوحدة التي انتخبته فيصبح في نظر نفسه وفي طرق تصرفه ومن حيث المصير والوضع الحياتي، عضواً من أعضاء المجلس وليس عضواً من الجماعة التي انتخبته.

(*) يمكن القول هنا أن المسؤولية الكبيرة التي يشعر بها الإنسان المطلق الحرية هي سلطة أبوية تقع في داخل الذات، كما سنرى في الكلام عن التحليل النفسي.

الوضعان الوحيدان اللذان يرى سارتر انه من الممكن فيهما أن يكون القائد فعلاً واحداً من المجموعة التي يقودها، فيتخذ القرارات، كرجل عام، على أساس مصلحة المجموعة، هما الوضعان التاليان:

1 - عندما تكون مجموعة ما مهددة من قبل مجموعة أخرى بخطر الفناء، يصبح كل فرد من الجماعة الأولى طاقة قيادية تقرر وتفعل، كرجل عام، ذلك ان الوضع الخطير يستدعي أن يفكر القائد في خلاص المجموع الذي يكمن فيه، وفيه وحده، خلاصه هو.

2 - عندما تتخطى المجموعة خطر الفناء، ويبقى في ذاكرتها أن تعرضها لذلك الخطر كان بسبب تفتتها حين كان أفرادها يشكلون سلسلة (Series) كل فرد فيها يفكر ويتصرف بدافع أهداف فردية مستقلة، وترى أن خلاصها مما كان يهددها من خطر في الاندثار كان بفضل انصهارها في مجموعة متحدة.

ويلاحظ أن سبب جمع الأفراد قد زال، فهم إذا مشرفون على العودة إلى الوضع التسلسلي، عندها تقرر المجموعة أن تشكل منظمة ارهابية، يتعرض فيها كل فرد يحاول اتخاذ القرارات كفرد مستقل وليس، كرجل عام، لخطر الموت على يد المنظمة ذاتها، وفي ظل الخوف المصطنع الذي تخلقه المنظمة ليحل محل الخوف الحقيقي الذي جعل منها جماعة بادية ذي بدء، يكون القائد ممثلاً للجماعة بالفعل يفكر بمصلحتها ويتخذ القرارات، كرجل عام، وهو العالم انه عندما لا يفعل يكون الموت من نصيبه.

منظمات كهذه يعارضها ريخ (Willhelm Reich) بشدة مطلقاً عليها اسم «الطاعون العاطفي المنظم»، مبنياً أن المنتسبين لها أناس ذوو شخصيات مريضة البنيان، فهم لا يرتاحون إلا في وضع التآمر والمخترى، وغايتهم لذة شاذة يجنونها من التآمر والاختباء، وليس أية غاية سياسية عقلانية كما يدعون. فعندما يدعون أهدافاً سياسية معينة، يكون ذلك مجرد ستارة يتخفون بها، والدليل على ذلك، أنهم لا يفتأون يغيرون تلك الأهداف تبعاً لما يتطلبه الوضع للبقاء على الدور الذي يلذ لهم، فالطاعون العاطفي، بحاجة إلى الاختباء وإلى نصب الكائن والتسبب في المتاعب، مما يفرح أعضاء المنظمة ويجذب إليهم أمثالهم من مرضى الشخصية.

إذا فالسلطة عند سارتر هي أبوية وهي دائماً شر، إلا ان سارتر الوجود والعدم يقول بأنها شر يجب التخلص منه، وسارتر نقد الفكر الديالكتيكي يقول بأنها شر لا بد منه، وطبيعة الإنسان في كلا الحالين تائقة إلى الحرية المطلقة حيث يبقى يحلم بأن يحقق ذاته في ظل وضع شبيه بوضعه في الطفولة الأولى في حضن أم لا تفرض عليه إلا الواقع الذي يختاره.

وجددير بالذكر أن الوضعين اللذين يتنادي بهما سارتر في كلتا المرحلتين هما وضعان يحكم عليهما علم النفس بأنها مرضان، فعدم التقيد بالواقع وخلق، واقع نرغب به، هو التعريف السائد للجنون، أما العيش في ظل الارهاب والانضمام اليه فهو ما يصفه المحلل النفسي ريخ بأن طاعون عاطفي منظم (Organized Emotional Plague) داعياً إلى علاج القابلين بالانصواء تحت سلطة كهذه.

فرويد (Freud):

أظهر فرويد والتحليل النفسي أن الشعور لا العقل هو سيد الموقف في تسيير حياة الفرد وفي خيارات ارادته، فالسعادة هي رائد كل انسان، والأنا العاقلة (Ego) تقود الفرد على ضوء الواقع إلى ما يحقق له أكبر قسط من اللذة ويعرضه لأقل ما يمكن من الألم. إذا فالعقل يعمل في خدمة الشعور وليس العكس. بالإضافة إلى ذلك، ما يسعى إليه الفرد، أي السعادة، ليست بالضرورة محققة لغايات المجتمع، بل كثيراً ما يتعارض الاثنان، ويبقى الفرد وحرته متحيزين لسعادته الفردية ولو كان ذلك على حساب المجتمع، ويبقى محاولاً لتحقيق رغباته لا يشبه عن ذلك إلا الخوف من العقاب. أما غايات المجتمع الحضاري، ومن ورائها السلطة الأبوية التي تسيّر المجتمع، فهي تحقيق المكاسب الحضارية من عملية وفتية، بأقل ما يمكن من الجهد والوقت ودون ايداء العنصر البشري بشكل يعطله عن الانتاج أو يحمله على قلب السلطة، وتبقى سعادة الفرد كغاية غريبة عن مرامي المجتمع لا تهتم من بعيد أو قريب.

إذا فالحرية والسلطة هما كيانان متعارضان، بالرغم من أن مصلحة كل منهما تكمن في المحافظة، إلى حد ما، على الآخر، فارادة الفرد تسعى إلى تحقيق سعادته بشكل يأخذ الواقع الاجتماعي والحضاري بعين الاعتبار، غير غافل عن أن الحضارة تسهل له الكثير من أمور حياته، وعن أن المجتمع لا يتورع عن معاقبته ان هو تحدّى سلطته في أمور يعينها القانون أو العرف، والسلطة تسعى إلى تحقيق أهدافها مانحة الفرد النذر اليسير من الحرية لتحقيق سعادته، حتى لا تقوده إلى الجنون أو الانتحار مما يسبب في خسارتها جزءاً من العنصر البشري العامل على بناء الحضارة.

بالرغم من أن التحليل النفسي يرى أن الحرية ضرورية لتحقيق السعادة، إلا انه يرى أيضاً أن الحرية المطلقة التي يتحدث عنها سارتر في الوجود والعدم هي أسطورة وخرافة، فالانسان محكوم، ليس فقط من الواقع المادي ومن المجتمع الذي لا يستغني عنه، بل حتى من تكوين شخصيته في الطفولة، إلا ان ذلك التكوين الذي يجعل من الطفل انساناً متحضرأ يقبل بحدود وقوانين المجتمع الذي يعيش فيه، يجعل أيضاً بعض الأنماط من السلطة أخف وطأة على الفرد وأقربها إلى قلبه من أنماط أخرى.

يحتاج الطفل لمن يلبي حاجاته الحياتية فيطعمه وينظفه ويعلمه الخ، وعندما يعي الطفل أن من يمنحه ما يحتاج إليه هو آخر، يبدأ يشعر بالحب، حيال ذلك الآخر، ويكون هذا الحب البدائي مزيجاً من الاعجاب واللذة الجسدية وينضج فيصبح تمثلاً بالمحجوب ورغبة في محاكاته، أو في إرضائه عن طريق الالتزام بمبادئه وقيمه. وبنمو شخصية الطفل يصبح المحبوب جزءاً من «الأنا»، وعلى وجه التحديد تمتصه «الأنا العليا»، فيصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصية الفرد، وبالرغم من أن المحبوب الأول هو عادة الأم، فرويد يجعل «الأنا المثالية» تنامي بالأب المجسد للقوانين الخلقية ولعناصر أخرى منها القوة والقدرة وصفات هي خليط من مزايا الأب الحقيقي -

أو الشخص الذي يلعب دور الأب في حياة الطفل - والأب النموذجي الأول (Primodial) الذي قد يمثل القائد السياسي أو حتى الإله. إذاً فلسفة الأبوة هي سلطة ضرورية لتكوين شخصية الطفل، ينمو بمحاكاتها ويشند بمقارعتها، وهي بالتالي سلطة مقبولة من الإنسان، وإن لم يكن قبولها واعياً، فوجودها، في نظر فرويد، ضروري لجعل أجدنا انساناً اجتماعياً قابلاً لقيوده كفرد (محضي)، ومتعاشياً بشكل مقبول منه ومن المجتمع مع قوانين المجتمع وتقاليده.

ماركوز (Marcuse):

يحاول هربرت ماركوز تحويل السلطة المقبولة إلى وجه الأم وليس وجه الأب. فالأم، هي في الواقع المحبوب الأول الذي منح الطفل قدراً من السعادة، لا يتوفر له مثل في أي وقت لاحق، إلا إذا حكمت المجتمع سلطة أمومية. هكذا سلطة، كما يصفها ماركوز، هي سلطة غير متسلطة إطلاقاً، فهي حكم لفوضى الذات، ولعب دائم لا يأبه للواقع فلا يواجهه ولا يحاول فهمه، وفي ظل سلطة كهذه يعود المرء إلى ما كان عليه في طفولته الأولى من السعادة والزجسية والانصراف الكلي إلى اللذة، غير آبه لأي تطور حضاري أو تكنولوجي أو اجتماعي.

بديهي أن موقف ماركوز متطرف، وهو يشابه في عدم واقعيته حرية سارتر المطلقة في الوجود والعدم، تلك الحرية التي عاد سارتر عنها عندما أخذ موقفاً سياسياً، أخذاً في عين الاعتبار التاريخ وواقع حاجات الإنسان، وإن بقي يحن إليها كوضع كياني (Ontological) أساسي.

والواقع أن السلطة الأمومية تنجلي في أكثر المجتمعات الحديثة في مؤسسات الرعاية الاجتماعية وفي تأمين الشيخوخة والمرضى وغيرها من المجالات التي تحقق العطف والعناية لأفراد لا يرجو المجتمع منهم أي إنتاج مادي. وعليه، فإن معظم السلطات الحديثة هي أبوية - أمومية، تدفع بالمجتمع إلى التطور والإنتاج حيث يمكن ذلك، وترعى الأفراد وتحاول إسعادهم سواء أطمعت بدفعهم إلى الإنتاج أم لا.

أما ما يمكننا استنتاجه من التحليل النفسي خاصة فيما يقوله في تكوين الأنا العليا فهو أن السلطة المقبولة لدى الفرد على الصعيد الشعوري، هي سلطة أهلية يتأهى بها المرء ويحبها، أما السلطة «الدخيلة» فتكون غريبة عن نمط شخصية الفرد لا تشبه «أناء العليا» ولا تجسد قيمه، ولا تحرك فيه أية عاطفة إيجابية إذ إنها لا تشابه آباء الأمة ولا أمهاتها ولا ألفتها. فالإنسان بحاجة إلى سلطان يشابهه بشكل يمكنه من أن يتأهى بذلك السلطان. وقد تكون الصفات التي تكرر الشبه أو عدمه صفات جسدية أو مسلكية، وقد تشمل على تفاصيل من لون الجلد أو اللغة أو الجنس.

خاتمة

رأينا فيما تقدم ان الآراء تتضارب حول موضوع السلطة الفضلى، ورأينا ان تفاوت الآراء هذا سببه في الدرجة الأولى الاختلاف حول ماهية الغاية الفضلى للحياة الانسانية: أهى السعادة، أم الحرية التي هي أيضاً الكرامة، أم المصلحة، أم مزيج من هذه كلها.

ورأينا أيضاً انه مهما تضاربت النظريات والغايات، فللحرية الفردية التي تمنحها السلطة الأمومية مكانة مميزة عند المنظرين بحيث أن الجميع بمن فيهم المؤمنين بالحق الإلهي للسلطة، ينادون بحرية الفرد بشكل أو بآخر.

أما السلطة الأبوية فيستغني عنها ماركوز ويقاومها بشدة سارتر في أعماله الأولى. ويحل محل السلطة عند ماركوز ايمان بأن الانسان إذا لم يجمع وإذا تسنى له تحقيق لذاته فهو يبقى خيراً لا أثر للعدائية فيه، ومن هنا يمكنه العيش بدون سلطة، أما عند سارتر في الوجود والعدم فخلقية الإنسان تجعله يشعر بمسؤولية الحرية، وهي كبيرة، بحيث انه عندما يتخذ أي خيار فهو يحسب ما يؤول الوضع اليه فيما لو أخذ كل انسان الخيار الذي يأخذه هو، وغياب السلطة عند ماركوز هو سلطة أمومية، أما غيابها عند سارتر، فهو باعث على ولادة نوع جديد من سلطة الضمير، أي الآنا العليا، أي السلطة الأبوية الكامنة ضمن حدود الآنا.

يبقى ان جميع المنادين بالسلطة الأمومية هم من المؤمنين بكون الانسان خيراً في طبعه، لا يحتاج إلى ترغيب وترهيب ان تأمنت حاجاته المادية. وان القائلين بانه لا بد من السلطة الأبوية يعتقدون بأن مجتمعاً يمنع أبناءه الحرية المطلقة لا بد وان تسوده الفوضى ويعم فيه الظلم والفساد، إذ ان الانسان بتكوينه يشتمل على عنصر الشر أو العنف كما يشتمل على عنصر الخير والرفاة.

ولو آمنا بأن نوعية الانسان متحركة تتغير بحسب اكتفائه المادي كما يقول ماركس وبحسب تنشئته كما يقول فرويد وماركوز، لرأينا ان نوعية السلطة المناسبة لمجتمع ما تتوقف على نوعية الانسان فيه، فكلما قرب الأفراد من الاكتفاء المادي والتربية الخلقية كان من الممكن الاكتفاء بسلطة أمومية، وكلما كان الفرد معرضاً لايذاء الآخرين وللفضوئية بسبب عدم توفر حاجاته أو بسبب سوء التربية، كانت الحاجة ماسة الى سلطة أبوية تقمع الفرد فتحرمه من السعادة، وفي الوقت نفسه تجنب الآخرين شره.

إن السلطة الأبوية خيرة حسب رواية هيغل وماركس، ومؤذية عن غير قصد حسب رواية فرويد وماركوز، ومؤذية عن عمد في نظر سارتر ونيتشه، لذلك فالسلطة التي يقبل بها سارتر في نقد الفكر الديالكتيكي هي سلطة الارهاب المجردة، فهي لا أبوية ولا أمومية، وهي سلطة لا يملكها أربابها، بل هي سيف مسلط على رقاب الحاكم والمحكوم على حد سواء.

لو افترضنا انه « كما تكونون يوئى عليكم »، لرأينا انه عندما يكون العنصر البشري، بما فيه الحاكم

والمحكوم، غير أهل للثقة، فالنظام الأصحح يكون السلطة الارهابية المجردة التي لا تتكل على خلقية الشعب ونهوضه بالمسؤولية، ولا على حسن نية الحاكم، وعندما تتوفر لأفراد الشعب ضروريات الحياة، يمكن للسلطة الأبوية أن ترخي الزمام مفسحة المجال أمام السلطة الأمومية، أما عندما يكون الشعب معدماً ويكون الحكام على مستوى عال من العقلانية ومن الاهتمام الصادق بشؤون الرعية، فالسلطة الأبوية تبقى المثل.

وبما ان السلطة الأبوية يمكن أن توجد داخل الأنا، على شكل الضمير أو الشعور بالذنب أو المسؤولية، كما يمكن أن تتوفر من قبل السلطة الحاكمة، فكلما ارتقى الشعور بالمسؤولية عند شعب ما، كانت حاجته الى السلطة الأبوية أقل إلحاحاً.

وامكانة الاستغناء نهائياً عن السلطة الأبوية، منوط بالحد الأقصى من الرقي الممكن لشعب ما أن يحصله، وهذا الحد هو ما لا يزال علماء الانثروبولوجيا مختلفين حوله: فالماركسية تقول ان الانسان الذي يعيش الوفرة يمكن أن يكون خيراً تماماً فلا يلجأ الى العنف ولا تسول له نفسه أن يظلم الآخرين، ويقول فرويد ان الانسان بحاجة دائمة الى سلطة أبوية لأن العنف والرجسية هما من المقومات الأساسية في بناء شخصيته، أما سارتر، فيلمح إلى أن الرقي في العلاقات الاجتماعية مؤوس منه، وان كان مطلوباً من الفرد أن يرقى خلقياً بفردية لكي يصير أكثر مسؤولية وأكثر حرية.

المراجع

- 1 - Hegel, Friederich, Philosophy of Right, Translated With Notes by T. Knox, Laredon Press, 1952.
- 2 - Schaff, Adam, Marxism and the Human Individual.
- 3 - Freud, Sigmund: On Narcissism: An Introduction In the Complete psychological Works of sigmund Freud Clarse. Inwim co, LTD. Toronto, 1961.
- 4 - Freud, Civilization and its Discontents.
- 5 - Freud, the Ego and the Id.
- 6 - Nietzsche, Friedrich Wilhelm, Complete Works, Edited by Oscar Lerby'Russell -Russell: New York, 1964.
- 7 - Marcuse, Herbert, An Essay on Liberation; Beacon Press: Boston, 1969.
- 8 - Reich, Wilhelm, Reich Speaks of Freud, Edited by M. Higgins C.M. Raphael M.D. Butler Tanner LTD: Great Britain, 1967.
- 9 - Sartre, Jean Paul, setre et le Meant! Paris, Gallimard.
- 10 - Sartre, Critique de la raison dialectique, Paris, Gallimard. 1960.